دعوة الأنبياء والرسل للإصلاح في ضوء القرآن الكريم

١٢ من ربيع الآخر ١٤٣٧هـ الموافق ٢٢ من يناير ٢٠١٦م

أولاً : العناصر:

١. الإسلام دين الصلاح والإصلاح.
٢. نماذج من دعوات الأنبياء والمرسلين للإصلاح في القرآن الكريم.
٣. حاجتنا إلى إصلاح النفس أولاً.
٤. أثر الإصلاح على الفرد والمجتمع.
٥. أضرار ترك الإصلاح.

ثانياً :الأدلة :

الأدلة من القرآن الكريم :

١- قال تعالى : {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأنعام : ٤٨].

٢- وقال تعالى على لسان شعيب (عليه السلام):{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود : ٨٨] .

٣- وقال تعالى على لسان شعيب (عليه السلام):{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[الشعراء: ١٨١– ١٨٣] .

٤- وقال تعالى:{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[الأعراف : ٥٦].

٥- وقال تعالى:{ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[الأعراف :١٤٢].

٦- وقال تعالى: { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الأنعام: ١٥١].

٧- وقال تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[هود : ١١٧] .

٨- وقال تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}[القصص: ٥٩].

٩- وقال تعالى:{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود: ٦١].

١٠- وقال تعالى :{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء: ١٤].

١١- وقال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[الأنفال :١].

الأدلة من السنة :

١- عَنْ زَيْدِ بْنِ مِلْحَةَ (رَضِيَ اللهُ عنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قال : (... إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي) (سنن الترمذي).

٢- وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ (سنن الترمذي) وفي رواية قَالَ: (هِيَ الحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ).

٣- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، يَقُولُ: (اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ) (صحيح مسلم).

٤- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ اِلاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) (البخاري ومسلم).

٥- وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ عَوْفٍ ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو أَيُّوبَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (يَا أَبَا أَيُّوبَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللهُ وَرَسُولُهُ؟ تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَبَاغَضُوا، وتَفَاسَدُوا) (المعجم الكبير للطبراني).

٦- وعن أنس بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال : قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنْ قَامَتْ السّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتّى يَغْرِسَهَا فَليغرسها) (رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد).

ثالثاً : الموضوع :

من القيم الإسلامية التي حث عليها ديننا الحنيف ونادى بها قيمة الصلاح والإصلاح ، فهو خلق عظيم تسعد به النفس البشرية وتميل إليه ، وهو قيمة إنسانية لابد منها لتحقيق عمارة الكون، وهو أيضا مطلب شرعي يدور معناه حول إزالة أسباب الفساد والشقاق ، والسعي للتقارب بين الناس حتى تستقيم أحوالهم في الحياة.

ولا شك أن الصلاح والإصلاح هو الغاية المنشودة من العباد في أعمالهم وأقوالهم ، فبغير الصلاح لا يُقبَل العمل ، ومن ثمَّ فلا بد أن يكون الإنسان صالحاً في نفسه وقوله وعمله ، مُصلحًا يحمل هموم الخلق ، ويعمل على إصلاحهم.

ومن يتدبر آيات القرآن الكريم يجد أنها عُنيت بهذه القيمة العظيمة ـ قيمة الإصلاح ـ عناية فائقة ، فقد ورد لفظ الإصلاح بمشتقاته في القرآن الكريم نحو مائة وسبعين مرة ، والإكثار من ذكر الشيء دليل على العناية به ، وعلى علو شرفه وعظم مكانته ، فوردت مادة (صلح) بمعاني متعددة تدل في مجملها على أن الإسلام يهدف إلى إصلاح الإنسان في اعتقاده وسلوكه وعباداته ومعاملاته وسائر حياته.

ولقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان بالله (عز وجل) والإصلاح في مواضع متعددة وفي ذلك إشارة إلى أن الإصلاح من علامات الإيمان بالله (عز وجل) ، قال تعالى:{فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأنعام:٤٨]. وقال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[الأنفال :١].

وكذلك ربط القرآن الكريم بين التقوى والإصلاح ، فقال تعالى:{فَمَن اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأعراف:٣٥]، وربط – أيضًا – بين التوبة والإصلاح ، فقال تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا}[البقرة:١٦٠] ، وقال تعالى:{فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا}[النساء:١٦] ، وقال تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[النور:٥] ، فالإصلاح إذًا هو ثمرة الإيمان بالله (عز وجل) والتقوى والتوبة النصوح الخالصة لرب العالمين.

كما رغب القرآن الكريم في الإصلاح لما فيه من الأجر العظيم ، قال تعالى:{ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء : ١١٤].

وإذا تتبعنا أخبار الأنبياء والرسل مع أقوامهم وجدنا أنهم أرسلوا جميعًا ليصلحوا ما أفسده الناس في الأرض ، فكانت رسالة كل الأنبياء واحدة ، وهي إصلاح الكون من الفساد والمعاصي، ومن الأمراض التي تفشت فيهم ، جاء كل نبي **ليصلح فسادًا قد انتشر في زمانه**، فأرسلهم الله (عز وجل) إلى خلقه مبشرين ومنذرين بعقيدة وشريعة وأخلاق تصلح النفوس وتجردها من دنس الشرك ، قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[الأنبياء :٢٥] ، وجاءت دعوتهم لتصلح عمل الإنسان في الدنيا لينال رضا ربه في الآخرة.

فهذا نوح (عليه السلام) دعا قومه إلى إصلاح أنفسهم بدين الله فيعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ويتركوا عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع من يعبدها ، قال تعالى:{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا}[نوح :٢٤،٢٣] ، ورغبهم في الإصلاح بالاستغفار حتى يكثر الرزق ، وينعم الله عليهم بالمال والولد ، قال تعالى:{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}[نوح :١٠- ١٣].

وها هو خطيب الأنبياء شعيب (عليه السلام) يعالج الفساد العقدي وما ترتب عليه من فساد اقتصادي في قومه ، فيدعوهم إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان ، وكان هذا الخلق المذموم منتشرًا بين قومه ، فجاء بدعوة الإصلاح التي تحفظ حق البائع والمشتري ، فقال تعالى على لسان شعيب – عليه السلام-: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}[هود:٨٤- ٨٥] ، ثم بين لهم حقيقة دعوته وأن جوهرها هو الإصلاح ، فقال (عليه السلام) :{إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود: ٨٨] ، وفي موضع آخر نجد عزمه (عليه السلام) على إصلاح ما أفسده قومه في الأرض من نقصان في الكيل والميزان ، فيقول لهم:{ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ

الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[الشعراء: ١٨١- ١٨٣] .

ولنا أن نلحظ ملحظًا دقيقًا في قول سيدنا شعيب (عليه السلام) وهو ينادي بالإصلاح فيقول :{وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، فقد بين أن هناك مقصدًا عظيمًا لا بد وأن يراعى عند كل مصلح ، وهو استحضار قيمة الإخلاص في الإصلاح.

إنه إصلاح لا يريد من خلاله تحصيل مصالح ومآرب شخصية ، ولا ينطلق من بواعث ونوازع نفسية أو من صراع شخصي ، إنما هو إصلاح يعود بالنفع العام على سائر أفراد المجتمع.

وهذا نبي الله صالح (عليه السلام) ينادي قومه فيقول : { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}[الشعراء:١٥٠-١٥٢].

وعندما استخلف موسى (عليه السلام) أخاه هارون (عليه السلام) في قومه أوصاه بالإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين ، قال تعالى:{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[الأعراف : ١٤٢].

وجاء نبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) ليستكمل دعوة الإصلاح في جميع مناحي الحياة دينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ، التي بدأها من سبقه من الأنبياء والرسل (عليهم السلام) ، وبنظرة عميقة في حياته وسيرته نجد أنه (صلى الله عليه وسلم) بنى حضارة إسلامية مرتبطة بالقيم والأخلاق ، بعد أن كان المجتمع ملوثًا بمفاسد أخلاقية كثيرة ، كالزنا والسرقة ، والقتل والربا ، وأكل أموال الناس بالباطل وأكل مال اليتيم ، وغيرها من الفواحش والمنكرات ، لكن رسول الله قابل كل هذه المشكلات بالمنهج الإصلاحي ، فكانت دعوته (صلى الله عليه وسلم) هي دعوة حياة وإصلاح للفرد والمجتمع ، قال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ }[الأنفال: ٢٤]. ففي الجانب الديني : جاءت دعوته (صلى الله عليه وسلم) لإصلاح النفس بالدين ، فبينت أن الله واحد لا شريك له ، وأقامت الأدلة على وحدانيته وصدق رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وفي جانب إصلاح السلوك دعا (صلى الله عليه وسلم) إلى حسن الخلق ، وبين أنه جوهر الدعوة ، فقد روى البيهقي في سننه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ).

كما دعا (صلى الله عليه وسلم) إلى القيم والمبادئ الإنسانية التي يتحقق بها إصلاح المجتمع ، والحفاظ على وحدته وقوته وتماسكه وترابطه، لكي تعيش البشرية في سلام وصفاء ، لا نزاع ولا شقاق ، ولا عنف ولا إرهاب ، بعكس ما نشاهده على الساحة من العنف ، والإفساد في الأرض بالقتل والتخريب .

ومن هذه القيم التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها في سبيل الإصلاح : العدل، والتسامح، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة ، والصدق في الأقوال والأفعال ، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، ومراعاة حق الجوار ، والكلمة الطيبة ، وذلك لأن مصدر التشريع السماوي واحد، ولهذا قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) (صحيح البخاري) ، فقد تختلف الشرائع في العبادات وطريقة أدائها وفق طبيعة الزمان والمكان ، لكن الأخلاق والقيم الإنسانية التي تكون أساساً للتعايش لم تختلف في أي شريعة من الشرائع، يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت) ، فأي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أو أباحت عقوق الوالدين ، أو أكل السحت ، أو أكل مال اليتيم ، أو أكل حق العامل أو الأجير ؟.

وأي شريعة أباحت الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو خُلف العهد ، أو مقابلة الحسنة بالسيئة ؟، بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية ، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب ، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

ولهذا قال ابن عباس (رضي الله عنهما) عن قوله تعالى :{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥١، ١٥٣] " هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهى محرمات على بني آدم جميعاً، وهن أم الكتاب – أي أصله وأساسه – من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار" .

ومن هنا فإن كل دعوة للإصلاح تخالف دعوة الأنبياء ، وتبتعد عن طريق الشرع ، فهي في الحقيقة دعوة للإفساد في الأرض.

ولقد ضرب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) المثل الأعلى في الصلاح والإصلاح ، قولا وعملا، فكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم) طلب الإصلاح في كل الأمور ، ومن ذلك قوله : (اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ) (صحيح مسلم) ، فكان يقوم بالصلح بين الناس بنفسه ، ويسعى إليه ترغيباً فيه ودرءًا للفتنة وإزالة للخلافات ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالحِجَارَةِ ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِذَلِكَ ، فَقَالَ: (اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ) (رواه البخاري في صحيحه) .

إن الصلاح والإصلاح هما الحصن الحصين لبقاء المجتمع وتقدمه ، فنحن بحاجة إلى إصلاح النفس أولاً وتطهيرها إصلاحاً يشمل مجالات الحياة المتنوعة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعلميا ، فإصلاح النفس مطلب شرعي وواجب ديني ، خاصة في هذه الأيام حيث ضعف الإيمان في النفوس ، وفسدت الأخلاق ، وضاعت الحقوق والواجبات ، فأصبح الكثير من الناس لا يعرف للكبير حقاً ولا للعالم والأقارب والوالدين ولا للوطن حقا.

وإن من الإصلاح أن يعي الفرد ما له وما عليه ، فلا يعتدي على حقوق الآخرين ، وأن يدرك الفرد واجباته فيقوم بها خير قيام ، فإن استقامته وتزكية نفسه على المكارم والأخلاق الفاضلة ، وصرفه وانتهاؤه عن الانحراف والإفساد في الأرض والظلم وامتلاء قلبه بالشحناء والبغضاء ، فهذا هو عين الإصلاح ، فكل إنسان يحقق استقامةً مع نفسه ومع ربه ومع بني جنسه ومع الكون فهو الإنسان المتحقق بالصلاح في نفسه ليكون صالحًا لغيره ، فكأن تزكية النفس بالأخلاق الفاضلة هو وسيلة الإصلاح التي تمنع من الظلم والإثم والوقوع فيما نهى الله عنه ، والعمل على تعمير الأرض واستخراج كنوزها وأسرارها التي تأتي بالنفع العام للمجتمع.

فبالإصلاح تكون الألفة لا الفرقة وهو عينه ما يدعو إليه القرآن الكريم. بالإصلاح تنعكس قيم الرحمة والتسامح والعفو على أفراد المجتمع ومن ثم الأمة كلها ، وبالإصلاح ننبذ بذور العنف والكراهية والحقد والبغض.

ولا يتوقف الإصلاح على وقت معين ، بل لا بد وأن يسعى الإنسان للإصلاح حتى آخر نفس في حياته ، وإلى ذلك أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه أنس

بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنْ قَامَت السَّاعةُ وَفِي يَد أَحَدِكُم فَسِيلةٌ فَإِنْ استَطاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتى يَغرِسَهَا فَليَغرِسْهَا) (رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد).

جدير بالذكر أن الإصلاح لن يتحقق ولن يؤتي ثماره إلا إذا بدأ الإنسان بنفسه ثم بأسرته ثم بمجتمعه، فإصلاح المجتمع واجب لا بد منه لتستقيم الحياة وتنعم البلاد بالأمن والعمل والتقدم ، وتحل المودة والمحبة بين الناس ، والصالح المصلح- الذي يبذل جهده وماله ليصلح بين المتخاصمين- دعا له النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقال: (إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي) (سنن الترمذي) .

إن للإصلاح أثارًا عظيمة على الفرد والمجتمع ، منها : تحقيق الحياة الطيّبة ، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل:٩٧].

ومنها: النجاة من الهلاك والدمار ، قال تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[هود:١١٧].

ومنها: وراثة الأرض ، فوراثة الأرض مشروطة بمهمة الإصلاح ، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[الأنبياء: ١٠٥].

ومنها تحقيق ولاية الله عز وجل ورعايته لعبده الذي أخذ بمبدأ الإصلاح ، وقام به على الوجه الأكمل ، قال تعالى :{إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف:١٩٦] .

ومنها أيضا: حفظ الذرية ، قال تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً}[الكهف:٨٢] ، فقصة بناء جدار اليتيمين في قصة موسى (عليه السّلام) مع العبد الصالح معروفة ، ولم تكن عملية بناء الجدار محض صدفة ، وإنما كانت أثراً لصَلاح أبيهما. عن ابن عباس (رضي الله عنهما) حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صَلاحاً .

ومنها: أن الإصلاح يحقق الأمن من الفزع في الدنيا والآخرة ، قال تعالى:{ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }[الأنعام:٤٨].

وكذلك يجلب المغفرة والرحمة، قال تعالى :{ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً } [النساء: ١٢٩] .

فالإصلاح إذا دخل على الشيء زينه وحسنه ، وهو خلق يحبه الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، به تستقيم الحياة ، وتكون الأمة قوية متماسكة يعز فيها الضعيف ، وبه يتحد المسلمون وتجتمع كلمتهم ، وتسود بينهم المحبة والمودة ، وهو دليل أخوة الإيمان ، قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}[الحجرات :١٠].

وإذا ما فقدنا قيمة الإصلاح فسد المجتمع ، وانهدمت الأسر ، وعمت الفوضى ، واستشرى الفساد ، وانتهكت محارم الله ، واقتُرفت الشهوات بل انهدم المجتمع والدولة والحضارة ، فترك الإصلاح يؤدي إلى تعميم العذاب في الدنيا والهلاك المعنوي ،كالفقر والذلة والهوان.